

## الراقصون على جثث الأطفال

من يتأمل حال الشعب السوري بعيدًا عن صخب السياسة وتصريحات الساسة الفارغة من كل مضمون يرى أننا أمام مأساة حقيقية راح ضحيتها عدد هائل من الأبرياء المستضعفين. لا زلت أذكر مقطعًا مصورًا لطفل دون الخامسة يدعى "عمار" من مدينة الحراك بدرعا الأبية استهدفته آلة الغدر "الأسدية" فحرمته يده ورجله معًا وما برحت تتربص به ويأقرانه تقتل منهم من تقتل وتستحيي من تستحيي وسط أصوات تستصرخ ضمير العالم كله دونما مغيث. لا زالت تطارد مخيلتي صورة "عمار" وهو يعتصر ألمًا على فقد يده ورجله ويقول وقد غلبته دموع القهر والحسرة على ما فقد "وينكم يا عرب، وينكم يا إسلام، قطعونا وموتونا". حاولت عبثًا أن أنسى صورة هذا الطفل المسكين الذي لا ذنب له ولا جريمة سوى انه ابتلي بهذا النظام المجنون الذي تجرد من كل أنواع الإنسانية واستحال وحشًا بريئًا يقتل الناس بالآلاف دون رحمة.

"عمار" ما هو إلا نموذج مصغر يجسد مأساة أطفال سوريا الأبرياء الذين يلاقون الموت ليل نهار، وربما تكلم عمار وغيره عما بداخله من أسى وحسرة لكن هناك غيره أطفال كثيرون أتت عليهم آلة القتل دون رحمة فما استطاعوا أن يعبروا عن الظلم الواقع عليهم إلا من خلال جثثهم المشوهة التي حركت مشاعر الكثيرين في العالم ممن لا يزالون يحملون في الصدور قلوبًا سليمة.

في سوريا تمتزج آلام الضعفاء بصرخات الثكالي ودموع الأرامل لتضعنا في مشهد مأساوي لم يعرف له التاريخ المعاصر مثيلاً، برك الدماء وأكوام الأشلاء تجسد الفجيعة وتحكى المأساة في كافة أرجاء الشام، أطفال تدبح ذبح الخراف، نساء تنتهك أعراضهن، رجال ينفذ فيهم الإعدام كل يوم بالعشرات بل بالمئات، ولا زال قادة العالم يشاهدون هذه المسرحية المأساوية دون أن يحركوا ساكنًا. وفي حين أن هناك من يبارك تلك الإبادة تحت ذرائع كاذبة ومعلبة مللنا سماعها، هناك من تأثر بالمشاهد وجلس يكفكف دموعه غير أنه لا يزال مصتراً على أن يقع في مقعده دون أن يفعل ما يمليه ضمير الإنساني عليه.

في ظل هذه المذابح وتلك المآسي لا تزال دول العالم تفكر وتفكر وتعيد التفكير مرة تلو الأخرى، القادة في الغرب يتساءلون عما يمكن أن يفعله حلفاء "الأسد" لو تدخلوا، وقادة الشرق - إلا قليلاً ممن نظنهم صادقين - لا يزالون غارقين في مسلسلات التخوين والمزايدات ومحاولات استغلال الأزمة لكسب أرضيات سياسية والرقص على جثث الضحايا. وفي حين يتطلع أهل الشام المستضعفون إلى سراب العون الذي قد يأتي من هؤلاء أو هؤلاء، تعاجلهم آلة القتل الغادرة فتنتزع فلذات أكبادهم شر انتزاع قبل أن تأتي عليهم فتقتلهم مرة بعد الأخرى. هذه المأساة التي يعيشها أهل الشام ليست ضرراً من ضروب الخيال أو المبالغة، بل هي واقع يعيشه المستضعفون منذ أكثر من عام ونصف في حمص وحماة ودمشق وريفها وحلب وريفها وغيرها من المدن. وأمام هذه الواقع المؤلم لم نعد نملك حبالهم إلا أن نتضرع لرب العالمين أن يرفع عنهم الغمة ويحقق دائلهم، فلئن تخلى عنهم جميع الخلق فلهم رب يحميهم.

أتركم مع بعض أبيات من قصيدة لأبي البقاء الرندي حول مأساة مشابهة:

يا رَبَّ أم وطفل حيلَ بينهم \*\*\* كما تُفَرِّقُ أرواحَ وأبدانَ

وطفلةً مثلَ حُسنِ الشمسِ إذ \*\*\* طلعت كأنما هي ياقوتٌ ومَرجانُ

يقودُها العُلجُ للمكروهِ مكرَهةً \*\*\* والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيرانُ

لمثلِ هذا يبكي القلبُ من كمدٍ \*\*\* إن كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ